

الجامع الأموي بدمشق بين الروايات التاريخية

والشواهد الأثرية

نزار الطرشان، معهد الآثار، الجامعة الأردنية، عمان - الأردن.

وقبل للنشر 2009/12/3

استلم البحث في 2009/3/17

ملخص

يعد الجامع الأموي بدمشق أشهر وأكبر مساجد بلاد الشام الأموية، ونظرا لأهميته التاريخية والأثرية، فقد جرت العديد من الدراسات عليه، ولأنه ذو أبعاد حضارية مختلفة، فقد قال الكثيرون بأن المسجد كان أصلا معبدا للإله حدد الآرامي وجوبيتر الروماني وكنيسة مار يوحنا، ومن هنا جاءت هذه الدراسة لإعادة النظر في الشواهد التاريخية المسيحية والإسلامية حول عمارة المسجد، لتأصيل تاريخ البناء من جهة ومن جهة أخرى إعادة قراءة الروايات التاريخية الدالة عند المستشرقين على أن المسلمين مع بدايات الفتح ولاحقا قد حولوا البناء الكنسي إلى مسجد متجاوزين بذلك صكوك العهود الإسلامية لنصارى دمشق بعدم التعرض لأبنيتهم. وهذا الأمر لا يمكن الإستدلال عليه من تلك الروايات التي فهمت عندهم بشكل مختلف. ولطالما كانت الروايات حول هذا الموضوع غير مؤكدة، فإن إعادة النظر حول نصوصها يستوجب هذه الدراسة في محاولة جادة للوصول لفرضيات جديدة تختلف تمام الاختلاف عما سبقها. ففي فترة فتح دمشق عام (634-635م) وما بعدها في خلافة معاوية بن ابي سفيان لم يتعرض المسلمون للكنيسة وأدوا الصلاة في القسم الغربي من المعبد. ان هذا الامر بقي كذلك الى خلافة الوليد بن عبد الملك (705-715م) الذي قام ببناء الجامع الاموي على كامل مساحة المعبد.

الكلمات المفتاحية: تاريخ - عمارة - المسجد الأموي - دمشق - كنيسة.

Al-Omawi Mosque in Damascus Between the Novels of Historical and Archaeological Evidence

Nezar Turshan: Institute of Archaeology, The University of Jordan, Amman - Jordan.

Abstract

This study deals with the Muslim and Christian historians who wrote many different stories about the origins of the Umayyad mosque of Damascus. This study will try to prove that the Muslims did not share the church.

An ancient Aramaic temple dedicated to the god Hadad is the oldest layer of architecture.

During the Roman period, the Temple of Jupiter occupied the space over the Aramaic building. Part of the structure was transformed to a church in the fourth century A.D..

This church was expanded to form the Cathedral of St. John, situated on the western side of the Roman temple.

After the Islamic conquest of Damascus in (664)A.D, during the reign of the first Umayyad caliph Mu'awiya Ibn Abi Sufyan, the Muslims did not share the church with the Christians, instead, the Muslims prayed in the eastern section of the ancient temple structure and the Christians Church to the west.

This use was continued until al- Walid bin Abdul Malek's reign (705-715) A.D. Who rebuilt the mosque over the whole structure.

Keywords: History – Umayyad Mosque, Architecture, Church.

مقدمة:

درج العديد من المشتغلين بالدراسات التاريخية والأثرية على التأكيد في مصنفاتهم أن أصل الجامع الأموي بدمشق كان معبدا للإله الآرامي السوري "حدد" ومن ثم سلالة الروماني "جوبيتر"، ثم بعد إنتشار المسيحية حول المعبد الروماني إلى كنيسة أطلق عليها إسم كنيسة "يوحنا المعمدان"، ثم ما لبثت الدراسات والنصوص التاريخية للقول أن الكنيسة حولت إلى مسجد مع بواكير فتح دمشق من قبل المسلمين.

ولهذا، فإن البحث يهدف الى إعادة النظر في هذه المصنفات خاصة التي تتحدث عن تحويل الكنيسة إلى مسجد أو إقتسام الكنيسة مع المسلمين لتصبح مسجدا وكنيسة في آن واحد، وربما يمكن القول أن هذه الدراسة هي قراءة معاصرة وجديدة وهي تسعى لتقييم ذلك الإرث المصنف ومقابلته مع الشواهد الأثرية، ومناقشة صحة ما ذهب إليه الباحثون في هذه المسألة.

وقبل البدء بذلك، فإن العديد من التساؤلات لا بد من طرحها كمهاد أولي لسبر غور هذه الروايات الإسلامية والمسيحية. ومن هذه التساؤلات، هل تقيد الفاتحون المسلمون بتوصيات الرسول (ص) والخلفاء الراشدين من بعده بضرورة عدم التعرض للمسيحيين أو أهل الكتاب وكنائسهم وبيعهم وصوامعهم وصلبانهم ومتعلقاتهم الدينية؟ وهل ما تعرضت له الكنائس من تحويل إلى مساجد "على قلة الروايات بخصوص بعض الكنائس كما سيرد لاحقا" وهل جاء تطبيق عهود الصلح بعد انتهاء عمليات الفتح تطبيقا دقيقا أم جرى التخلي عن مثل تلك العهود وما ورد فيها من نصوص تمنع التعرض لأبنية أهل الكتاب؟

وهل جرى تحويل الكنائس في الشام وسواها بعد هجرها من قبل أصحابها إلى مساجد؟ وعندما عادوا مرة ثانية طالبوا بها، أم هل تعرضت الأبنية عموما للهزات الأرضية فتهافت هذه الأبنية ولم تعد صالحة للإستخدام خاصة الكنائس منها؟ وهل كان همّ الفاتحين الرئيس بعد دخول المدن مناصفة أهلها دورهم وكنائسهم أم أنهم كانوا منشغلين بالفتح في أماكن أخرى ولم يقيموا في البلاد المفتوحة إلا قليلا ؟

وبناء على ما تقدم فإن العودة إلى الروايات التاريخية أمر لا مفر منه وإعادة النظر فيها مطلب لا غنى عنه، خاصة في مسجد أخذ القسط الأوفر من التأكيد على أصله المسيحي وأن التعديل الإسلامي كان سهلا ويتناسب مع الدين الجديد، وهذا ما يدفع بالتالي لإعادة النظر في كتابات المشتغلين في الآثار العمانية خاصة الدراسات الإستشراقية منها كما سنبين لاحقا.

الروايات الإسلامية

جاءت الروايات التاريخية في المصادر الإسلامية متعددة بشأن فتح دمشق من جهة ومن حيث تقسيم الكنيسة أو شرائها لاحقا، وفيما يلي استعراض لأهم هذه الروايات التاريخية ومن ثم مناقشة لها في محاولة لفهم حادثة تقسيم الكنيسة الواردة في تلك المصادر المتعددة.

فذكر الواقدي "إن أصحاب رسول الله قصدوا الباب (باب دمشق) وكسروا الأقفال وقطعوا السلاسل، ودخل خالد بن الوليد ومن معه من المسلمين ووضعوا السيف في الروم الى أن وصل الى كنيسة مريم وخالد يأسر ويقتل".⁽¹⁾

وروى أيضا "إن أهل دمشق صالحوا أبا عبيدة وقالوا إنا نريد منكم أن تتركوا كنانسنا، ولا تنقصوا علينا منها كنيسة، وهي الجامع الآن بدمشق، فقال لهم أبو عبيدة : جميع الكنائس لا يؤمر بهدمها، قال أبو هريرة : وكان في دمشق كنائس واحدة تسمى كنيسة مريم وكنيسة حنا، وكنيسة سوق الليل وكنيسة إنذار".⁽²⁾

وأورد خليفة بن خياط رواية تقول : "حدثنا عبد الله بن المغيرة عن أبيه قال : صالحهم أبو عبيدة على أنصاف كنانسهم ومنازلهم وعلى رؤوسهم على أن لا يمنعوا من أعيادهم ولا يهدم شئ من كنانسهم".⁽³⁾

وتحدث الأزدي عن فتح دمشق ومصالحة أهلها ولكن لم يذكر المناصفة لكنائس دمشق ومنازلها.⁽⁴⁾ رغم ذكره حصار حمص ومصالحة أهلها على أموالهم وكنائسهم على أن لا يعمرها ببيعهم.⁽⁵⁾

وأورد البلاذري "زعم الهيثم بن عدي إن أهل دمشق صولحوا على أنصاف كنائسهم، وقال محمد بن سعد قال أبو عبد الله الواقدي : قرأت كتاب خالد بن الوليد لأهل دمشق فلم أر فيه أنصاف المنازل والكنائس، وقد روي ذلك ولا "أدرى من أين جاء به من رواه". ونص العهد كما رواه البلاذري يقول "بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها أعطاهم أمانا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم، لا يهدم ولا يسكن شئ من دورهم، لهم بذلك عهد الله وزمة رسول الله (ص) والخلفاء والمؤمنين لا يعرض لهم الا بخير إذا أعطوا الجزية"⁽⁶⁾

أفاض البلاذري في أن معاوية بن أبي سفيان (41-60هـ/661-680م) وعبد الملك بن مروان (65-86هـ/685-705م) طلبوا الكنيسة لإضافتها فرفض النصارى ذلك فأمسكوا (أي معاوية وعبد الملك عن طلبها).⁽⁷⁾ إلى أن ذكر رواية تتعلق بالوليد بن عبد الملك (86-96هـ/705-715م) ودفعه مالا ثمنا لها، إلى أن يشير إلى قيام الوليد بنفسه بهدم الكنيسة وإدخالها بالمسجد⁽⁸⁾

ولكن الطبري يقول : "إن صلح مدينة دمشق، كان على المقاسمة، الدينار والعقار ودينار على كل رأس، فأقتسموا الأسلاب".⁽⁹⁾

أما المؤرخون المتأخرون مثل ابن عساكر وابن جبير والعمري والنعمي، فقد ذهبوا مذاهب أخرى في أمر كنيسة دمشق، فقد ذكر ابن عساكر الذي لا يشير إلى إقتسام الكنيسة إلى أن الكنيسة قد وكل بها زيد بن واقد لبناء جامع دمشق الذي وجد داخل البناء كنيسة صغيرة أخرى قياسها ثلاثة أذرع بثلاثة أذرع فيها رأس يحيى بن زكريا.⁽¹⁰⁾

والرواية الأكثر إثارة هي رواية الرحالة ابن جبير حيث يقول : "إن الوليد اخذ نصف الكنيسة الباقية منه (المسجد) من أيدي النصارى وأدخلها في المسجد وكان قسمين : قسم للمسلمين وهو الشرقي وقسم للنصارى وهو الغربي لأن أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، دخل البلد من الجهة الغربية فإنتهى إلى نصف الكنيسة وقد وقع الصلح بينه وبين النصارى، ودخل خالد بن الوليد رضي الله عنه، عنوة من الجانب الشرقي وانتهى إلى النصف الثاني وهو الشرقي، فإجتازه المسلمون وصيروه مسجدا وبقي النصف المصالح عليه وهو الغربي بأيدي النصارى، إلى أن عوضهم عنه الوليد".⁽¹¹⁾

أما العمري فقد ذكر : "مسجد عظيم، ومعبد قديم. لا يعرف على الحقيقة بانبيه وهو كنيسة لأهل دمشق يتعبد بها زمن الروم، وقد كان قبلهم مسجدا لأمم مختلفة"⁽¹²⁾ ويقول في موضع آخر : فكانت دمشق نصفين والكنيسة كذلك⁽¹³⁾ ويشير إلى رواية أخرى : فرضوا (النصارى) إن هدم (الوليد) الكنيسة الداخلية وأدخلها في المسجد، وكان بابها قبلة المسجد اليوم المحراب الذي يصلي فيه.⁽¹⁴⁾ وأكثر الروايات التاريخية عند العمري دلالة : "روى الوليد بن مسلم عن ابن جابر وغيره، قال : لما كان الوليد وأراد بناء المسجد، فقال إنا نريد أن نزيد في مسجدنا كنائسكم هذه، ونعطيكم عوضها حيث شئتم. وإن شئتم أعطيتكم عنها وأضعف لكم الثمن."⁽¹⁵⁾

وأما النعمي فقد ذكر : أن الوليد بنى جامع دمشق وزخرفه، وكان قبله نصفه كنيسة للنصارى ونصف الذي محراب الصحابة به للمسلمين... صالحهم عليها فرضوا.⁽¹⁶⁾ ثم يشير إلى روايات الوليد وطلب شراء الكنيسة وحكاية هدم الوليد للكنيسة وبناء المسجد سنة ست وثمانين هجرية⁽¹⁷⁾ ويروي عن البلاذري في كتاب البلدان أن معاوية أراد أن يزيد كنيسة يوحنا في الجامع فأبى النصارى ذلك فأمسك.⁽¹⁸⁾

وفي رواية : أن الوليد بعث للنصارى أن يدخل الكنيسة في المسجد فأبوا ذلك.⁽¹⁹⁾ ومما يشير إلى بناء المسجد كاملا من الداخل زمن الوليد ما ذكره النعمي في رواية هامة له يقول : وقد بنى الوليد بن عبد الملك بن مروان كل ما كان داخل حيطان المسجد وزاد في سمكها.⁽²⁰⁾

الروايات المسيحية :

إن أقدم الروايات المسيحية حول مسجد دمشق جاءت عند الرحالة الشهير اركولوف (Arculfus) الذي زار الشام عام 670م (50هـ) حيث ساعده في جولاته الراهب بطرس البرجندي، وقد ذكر هذا الرحالة : إن بالمدينة كنيسة كبيرة واسعة بنيت على شرف يوحنا المعمدان. وأشار إلى أن للمسلمين في زمن معاوية كنيسة (يقصد مسجدا) وإن المسلمين يترددون عليه.⁽²¹⁾

إلا أن الرحالة وليبالد (Willibald) الذي زار الشام عام 754م لم يتحدث عن كنيسة دمشق كما ذكر محمود عمران في مقالة مطولة له في مؤتمر بلاد الشام في العصر الراشدي.⁽²²⁾

أما المؤرخ ابن البطريق فروايتة في هذا الصدد تقول "عندما أراد الوليد أن يبني المسجد بدمشق دعا النصراني وقال لهم: إننا نريد أن نزيد في مسجدنا كنيسة هذه، كنيسة مار يوحنا... وبذل لهم أربعين ألف دينار، فأبوا، وقالوا لنا نمة، وجاءوا بكتاب خالد بن الوليد. فغضب الوليد فقطع خشبه بيده... فهدم، وهدم الناس معه، فزاد من ناحية شرقي المسجد والمقصورة كلها من كنيسهم وبقيت على هذا."⁽²³⁾

الشواهد الأثرية:

إن هذه الدراسة لن تستفيض في عمارة الجامع الأموي بدمشق، فقد كثرت الدراسات في هذا الصدد ولم يترك أمر في عمارته وتخطيطه إلا تناوله الباحثون المعماريون والآثاريون. ولكن هذه الدراسة ستحاول التأصيل لشواهد أثرية تتعلق بحكاية تحويله من كنيسة إلى مسجد، ولكن بصورة عامة لا بد من وصف مقتضب لتلك المسائل المعمارية. فتشير الدراسات إلى أن البناء الحالي يقع ضمن سياق معماري لمعبد أصله سوري آرامي ثم روماني، ففناء المعبد الروماني تبلغ أبعاده 385م شرق غرب و 305م شمال جنوب، أما المعبد نفسه فأبعاده 157.5م شرق غرب و 100م شمال جنوب، جعل في كل زاوية برجاً مربعاً، لم يبق منها إلا أجزاء في الجدار الجنوبي والجدار الشرقي.⁽²⁴⁾ (شكل 1)

وفي عهد ثيودوسيوس الأول (Theodosius 1) (379-395م) توقفت الطقوس الوثنية وسادت المسيحية كما يقول مالالاس (القرن 6م) وكما جاء في حوليات باشال (640م) خبراً مشابهاً لذلك⁽²⁵⁾ ويذكر "غرابار" (Grabar.o) أن الجامع الأموي الذي بني على الأطلال السابقة كان مستطيلاً أبعاده 157×100م مع أبراج مربعة (منارات) على الزوايا والأسوار الخارجية جزء من الساحة المقدسة (Temenos) (للمعبد الروماني وضمن المسجد (ساحته المكشوفة) 122×50م ويقرر أن قلته من الأجزاء باق من أصل روماني أو مسيحي⁽²⁶⁾ (شكل 2) ويذكر كريسول أنه رغم اكتشاف بعض الكتابات التي تؤرخ لبناء فناء المعبد، حيث إكتشف جرمر دوراند عام 1900م نقشاً أرخ لعام 327م يشير إلى بناء الزاوية الشمالية الشرقية، واكتشف هاناور نقشاً آخر على الوجه الخارجي من الجدار الشرقي لفناء المعبد مؤرخ لعام 349م⁽²⁷⁾ وأصبحت فيما بعد هذه الأبراج والمنارات الثلاث المعروفة وهي اثنتان من الجهة الجنوبية وتسمى مئذنة عيسى والمئذنة البيضاء والثالثة وسط الجدار الشمالي وتسمى مئذنة العروس⁽²⁸⁾ شكل (2)، (3)

وهبت طائفة من الباحثين للقول ومحاولة الإثبات أن المعبد قد تحول إلى كنيسة خاصة حرم المعبد وبعضهم ذهب للقول أن الكنيسة حولت إلى مسجد أيضاً في منطقة الحرم الرئيس للمعبد أمثال سبييرز (Spiers) و دسو (Dussad) وستروغوفسكي (Ostrogorsky) ووتزنجر وولزنجر ولامانس (Lammens)⁽²⁹⁾ على الرغم من أن ثيوفانوس في حوليته الشهيرة يذكر استيلاء الوليد على الكنيسة دون أن يشير من قريب أو بعيد إلى حادثة التقسيم، وهذا الأمر هام جداً لقرب عهد المؤرخ ثيوفانوس (Theophanous) (818م) من فترة حكم الوليد.⁽³⁰⁾ كذلك فإن الرحالة "وليبالد" (Willibald) الذي زار دمشق عام 754م لم يشر إلى كنيسة يوحنا المعمدان في دمشق وهو الأقرب زمنياً من ثيوفانوس.⁽³¹⁾

والأمر الأكثر مراعاة هو أن مؤرخ دمشق ابن عساكر الذي جمع العديد من الروايات المتنوعة حول فتح دمشق لم يشر إلى حادثة الاقتسام لكنيسة يوحنا رغم أنه مؤرخ منصف لا تفوته مثل هذه الحادثة على أهميتها في المصادر الأخرى التي أوردتها.⁽³²⁾

ومن أكثر الإشارات التاريخية هنا ما ذكره الرحالة الحاج اركولوف عن إن معاوية (ملك العرب كما يسميه) قد كان يصلي في مسجد المدينة (الذي يسميه اركولوف) كنيسة المسلمين، وإن في المدينة كنيسة كبيرة واسعة بنيت على شرف يوحنا المعمدان.⁽³³⁾

إن مثل هذه الرواية عند الرحالة اركولوف (Arculfus) لا يمكن فهمها على أن مساحة بناء معبد جوبيتر الروماني قد عدلت لتصبح بناءً كنسياً، لأن مثل هذه المساحة لم يعثر على أمثلة مشابهة لها في كل بلاد الشام، ولو افترضنا أن الكنيسة كانت تغطي مساحة المعبد كاملة فهذا الأمر يستدعي أن ننصوّر الكنيسة البازليكية على أنها ثلاثية الأجنحة أو خماسية وربما

أكثر من ذلك نظرا لإتساع مساحة المعبد، ومثل هذه المخططات الثلاثية أو الخماسية لا يمكن إقامتها هندسيا على كامل مساحة معبد جوبيتر، ومما يؤكد خلاف ذلك، أن المسجد عند بناءه أنشئ على جزء من المساحة الكلية للمعبد الروماني لبناء بيت الصلاة (المصلى المسقوف) وترك الباقي ساحة خارجية.

ومما يضيف مزيدا من التأكيد أن الحفريات الأثرية التي قامت بها دائرة الآثار السورية بإشراف عبد القادر الريحاوي في صحن الجامع لم يكشف فيها على أية أدلة تشير أو تؤكد أن الكنيسة كانت تغطي كامل مساحة معبد جوبيتر الروماني.⁽³⁴⁾

وهذا ما دعى الريحاوي الى استنتاج هام يذكر فيه أن الناس لم تكن تميز بين معبد أو كنيسة أو مسجد، فقالوا بإقتسام الكنيسة وهذا هو محور الحديث فيما سيأتي لتحليل الروايات الإسلامية والمسيحية والشواهد الأثرية للوقوف على حقيقة ما جرى بخصوص البناء ولمحاولة تأصيل هوية المسجد بعد تنقيب تلك الشواهد التي قال بها المؤرخون على إختلاف إتجاهاتهم وأخذ بها الأثاريون بعد ذلك.

تحليل الروايات الإسلامية والمسيحية والشواهد الأثرية

ان موضوع البحث مسألة تتعلق بالتحقيق في هوية الجامع الأموي بدمشق فلا يمكن هنا الفصل بين الروايات والشواهد الأثرية لإن كل منها يكمل الآخر لذلك سيكون الخلط بين الشاهد الأثري والرواية أمر لا مفر منه لتحقيق مثل هذه الرؤية.

أما بالنسبة للروايات التاريخية الإسلامية المبكرة مثل روايات الواقدي والازدي والبلاذري وغيرهم كما ذكر سابقا، جميعها تركز على أمر واحد يكاد يكون متقاربا عند جميع المؤرخين وهو توقيع اتفاقية الصلح بين الروم والمسلمين وإطارها العام هو المحافظة على أبنية النصارى خاصة الكنائس بعدم الهدم أو التغيير أو حتى موضوع التغيير في هوية تلك الأبنية.

ان أكثر الروايات غرابة هي رواية البلاذري عن الهيثم بن عدي ومصالحة النصارى علي أنصاف كنائسهم، وتعليق البلاذري على ذلك بقوله: "ولا أدري من أين جاء به من رواه". وقول الواقدي تعليقا على نفس الرواية في سند يعود به إلى محمد بن سعيد: أنه: قرأ كتاب الصلح ولم يجد فيه عبارة "أنصاف كنائسهم".

إن مثل هذا الأمر يدل على أن الصلح الذي وقعه خالد بن الوليد مع النصارى يمنع المسلمين من التعرض للكنائس عموما لإن كتاب أمان خالد لهم لا يجيز ذلك إنما يعطيهم أمانا واضحا على أنفسهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم منها شيئا مع تأكيدات أبو عبيدة بن الجراح لهم على هذا الأمر، خلاصة ذلك أن المسلمين في أول أمرهم لم يتعرضوا لتلك الكنائس بما فيها كنيسة يوحنا ولم يتم مقاسمتها حتى يصلي المسلمين في ناحية منها بسبب إلزامية عهود الصلح. وعند الوقوف على رواية الطبري بهذا الخصوص فهو يشير إلى المقاسمة بقوله: الدينار بالدينار والعقار بالعقار. وهذا ما درج عليه الطبري في جمعه للروايات دون تحقيقها، وإدراجها على حالها تاركا المجال للقارئ أن يحقق في الرواية ويأخذ ما يشاء ويترك ما يشاء، أما المؤرخين المتأخرين أمثال ابن عساكر مؤرخ دمشق الأكثر شهرة والأكثر تحقيقا للرواية الدمشقية الشامية فلا يذكر المناصفة للكنائس، على أن مؤرخين أمثال العمري والنعمي فقد جمعوا روايات متضاربة ومتناقضة في أحيان كثيرة بهذا الخصوص، لذلك لا يؤخذ برواياتهم المجموعة ولا يؤخذ بما ورد فيها نظرا لتراخي المدة الزمنية التي كتبوا فيها وكذلك نلاحظ تراخيا واضحا في تحليل الرواية عندهم بهذا الخصوص.

ومن خلال إستقراء جميع الروايات الإسلامية المتأخرة والمبكرة نجد رواية يذكرها الرحالة الشهير ابن جبير ولا يذكر لنا مصادره فيها بأن المسلمين أخذوا نصف الكنيسة التي ادخلها الوليد في بناء المسجد، وهذه الرواية هي ابرز الروايات التي أخذ بها المستشرقون عموما في مسألة المناصفة لكنيسة يوحنا، وبذلك علينا إن ندرك تماما إن رواية ابن جبير - متأخرة جدا عن أصل الحدث التاريخي - لذلك يجب أن تؤخذ أقواله بكثير من الحذر وهذا ما لم يفعله الكتاب المتأخرون خاصة المستشرقون منهم.

وعند إستعراض الروايات المسيحية بهذا الخصوص نجد من أبرزها روايات اركولوف و وليبالد وإبن البطريق، فهي روايات أكثر واقعية لأنها أكثر قربا من الحدث التاريخي كله. لذلك فإن أشهرهم ابن البطريق في كتابه "التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق" يذكر عبارة في غاية الأهمية وربما لم يلتفت إليها الكثيرون ممن درس تاريخ مدينة دمشق، بقوله "إننا نريد أن نزيد مسجدا كنيسة هذه... ويفهم من سياق هذا القول أن هنالك بناء مستقل هو المسجد وبناء آخر هو الكنيسة لذلك إقتضى الأمر أن يطلب الوليد زيادة الكنيسة في بناء المسجد وهذا أمر يقتضي الدراسة والتحليل لاحقا عند

النظر في الشواهد الأثرية. فضلا عن أن الرحالة أمثال اركولف ووليبالد الذين زارا دمشق في القرن الثامن الميلادي، لم يتحدثوا عن مسألة اقتسام أو المناصفة لكنيسة دمشق إنما أشارا إلى بناءين منفصلين مستقلين تماما عن بعضهما البعض. وهذا ما يدعونا لإعادة النظر جذريا في حقيقة هوية الجامع الأموي بدمشق وإعادة النظر في مسألة اقتسام البناء ليكون صالحا لكلا الطرفين في تأدية شعائره الدينية.

تحليل الشواهد الأثرية :

في بداية الأمر لا بد من التأسيس لمسألتين مهمتين لمحاولة تصحيح الواقع التاريخي ومقاربة الشاهد الأثري.

أولا - لم يتعرض مسجد من المساجد الإسلامية الأولى لمثل ما تعرض له مسجد بني أمية بدمشق من حيث تضارب الرواية التاريخية على إطلاقها

ثانيا - إن المساحة التي تشغلها الكنيسة والتي بنيت بحسب ما جاء في المصادر العربية على كامل مساحة معبد جوبيتر. إن مثل هذه المساحة الضخمة أو حتى اصغر منها بقليل أمر لم يكن موجودا أو شائعا في بناء الكنائس عموما، وخاصة في بلاد الشام فلم يعثر حتى الآن على كنيسة بمثل هذه المواصفات، حتى أهم الكنائس في المنطقة مثل كنيسة القيامة وكنيسة المهد على أهميتها الدينية لم تصل إطلاقا لمثل هذا القياسات.

وعليه فإن المصادر حتى زمن الوليد سواء الإسلامية أو المسيحية لم تذكر أمرا مهما وهو بقاء النصارى يستخدمون الكنيسة كبناء ديني تؤدي فيه الشعائر والطقوس الدينية، رغم إشارة الدراسات لزلازل ضربت المنطقة في الأعوام (526م) و (540م) و (556م) و (600م)⁽³⁵⁾ وكذلك فقد ذكرت طائفة من المصادر العربية عدداً من الزلازل التي ضربت بلاد الشام في العصر الإسلامي المبكر منها زلزال (13هـ/634م) و زلزال (23هـ/643م) و زلزال (57هـ/676م) و زلزال (70هـ/689م) بحسب ما جاء في سجل الزلازل العربي⁽³⁶⁾ وهي التي تسببت في هدم الكنيسة أو أجزاء كبيرة منها لذلك طلب الوليد من النصارى هدم الأجزاء المتهدمة منها وغير الصالحة لتأدية الصلاة آنذاك وإدخاله في بناء المسجد الأموي مشروع بني أمية الضخم في عاصمتهم دمشق .

وهذا الأمر يمكن القبول به إذا علمنا أن مثل هذه الأجزاء المتهدمة يمكن للمسلمين الاستفادة منها خاصة وإن مواد البناء متوفرة مثل الأحجار والرخام والأرض المناسبة المبلطة أصلا للمعبد القديم، وهنا قام البناءون بإستخدام المساحة كلها.³⁷

فضلا عن الإستدلال الهام الذي توصل اليه كريزول (Creswell) في أن تاريخية الجدران لمبنى الجامع وبعد رسم مخططين منفصلين ومساقط هندسية للجدران والأسوار ذكر بأنها جميعا تعود إلى فترة ما قبل الإسلام.⁽³⁸⁾

وفيما يلي محاولة لإعادة تصور لشكل البناء عندما كان أصلا معبد ثم كنيسة ثم مسجدا لغايات فهم طبيعة الأبنية الثلاث في نفس المنطقة التي بنيت عليها :

إن التصور التالي لطبيعة المكان وانتشار العمارن فيه للأبنية الثلاثة يمكن أن يكون كما يلي : بالعودة أولا لبناء معبد جوبيتر فقد كان يغطي جميع المساحة السابقة التي ذكرت قياساتها حيث كان المعبد قائما بأبراجه وأسواره الخارجية وجدرانه الداخلية، فلما تهاوى ذلك البناء جرت عملية تفريغ للمنطقة الداخلية من التركيبة المعمارية كلها، ثم قام المسيحيون ببناء كنيسة في الجهة الغربية الشمالية وربما في وسط تلك المنطقة، وكانت كنيسة صغيرة الحجم تناظر في مساحتها مساحة الكنائس التي بنيت في بلاد الشام وربما أصغر منها، لذلك نجد نص ابن البطريق يشير إلى إضافة الكنيسة في مساحة المسجد، وعندما قام المسلمون بفتح مدينة دمشق أقروا الصلح ولم يتعرضوا لتلك الكنيسة والتي أصبحت جدرانها متداعية ولا تصلح لإقامة الصلاة بدليل عدم إشارة المؤرخين المسيحيين المعاصرين لمثل هذا الأمر في أنهم كانوا يؤدون الطقوس والشعائر الدينية المسيحية فيها. لذلك فإن الوضع المعماري المقترح لتموضع الكنيسة فقد يكون إتخذ منتصف الجهة الغربية تماما كما في الشكل وبالتالي فإن مدخل الكنيسة كان في الجهة الغربية لهذا القسم وكان الباب الموجود في الجدار الغربي هو أحد مداخل الكنيسة البازليكية الثلاثية المتجهة حنيتها نحو الشرق.(شكل 4)

أو قد يكون الإقتراح الثاني لموضع الكنيسة أن جدارها الجنوبي هو جزء من جدار معبد جوبيتر (كما في الشكل 5) وبالتالي فإن جزء من الجدار الغربي بمدخله الثاني، والجدار الجنوبي للمعبد أصبحا جزءا من الكنيسة وبني جدار شمالي وآخر شرقي يحوي الحنية.

وبذلك عندما تداعى البناء في كلا الافتراضين فقد قام الوليد لاحقا بهدم ما تبقى منها وأدخله ضمن المسجد .

وعليه قام المسلمون ببناء مسجدهم في القسم الشرقي من البناء الروماني واتخذوا الجدار الجنوبي أو جزءا منه قبلة لمسجدهم لهم بدليل توسط المحراب الأول في المنطقة المتوسطة من منتصف جدار جوبيتر الجنوبي. (شكل 5)

وعندما أراد الوليد بناء المسجد الأموي طلب زيادة أطلال الكنيسة المتهدمة بحسب ما ورد سابقا في مشروع بناء مسجد بني أمية الذي غطى مساحة كبيرة من معبد جوبيتر حيث أبقى على الأبراج الموجودة حاليا لتكون قواعد لمآذن المسجد فيما بعد وهي التي عثر فيها على بعض النصوص الرومانية التي كشف عنها (هاناور وجرمر دوراند) بحسب ما ذكره كريزول⁽³⁹⁾

نتائج البحث :

من خلال إستعراض وإستقراء الروايات التاريخية والشواهد الأثرية يتبين أن هنالك تراخ واضح في الروايات على إختلافها وهذا التراخي يترافق مع تراخي الفترة التاريخية وابتعاد الكثير من النصوص التاريخية عن فترة الحدث التاريخي بخصوص إقتسام الكنيسة مما يجعل المجال واسعا في عدم القبول بشكل كامل في نص تلك الروايات.

إن موضعي الجامع والكنيسة داخل حرم معبد جوبيتر متباعد بدلالة النصوص التاريخية عند ابن البطريق وعند البلاذري الذي لا يعترف أصلا بإقامة بناء المسجد داخل الكنيسة، مما يترتب عليه الإستنتاج بأن البنائين منفصلين تماما .

لا يوجد أية أدلة أثرية واضحة تدل أو تثبت على أن أصل الجدران الداخلية للمسجد والخارجية للمسجد قد كانت في الأصل جزء من بناء الكنيسة.

إن الوليد بن عبد الملك لم يخالف أصلا الإتفاقيه (إتفاقيه الصلح) لأنه وجد الكنيسة أصلا متهدمة ولا تصلح لإقامة الشعائر الدينية المسيحية مما دعاه بالتالي إلى طلب شراء المكان المتداعي رغم معارضة مسيحيي دمشق لذلك.

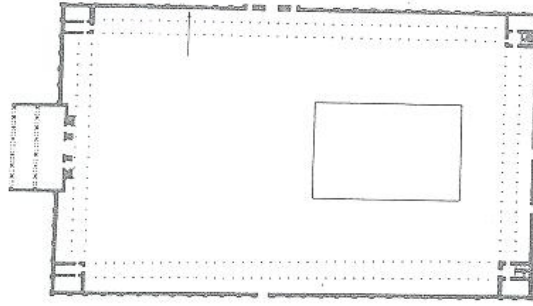
إن فناء المعبد الروماني بصورة عامة لا يظهر أبدا ولا يؤيد مبدأ الإقتسام للكنيسة التي روج لها العديد من المستشرقين إستنادا لروايات تاريخية متأخرة.

وبما أن المصادر الإسلامية المبكرة والمتأخرة السابقة الذكر لا تشير الى عملية إعمار إسلامية في بدايات الفتح فإن المفترض إن المسلمين قد إتخذوا القسم الشرقي من المعبد وليس القسم الشرقي من الكنيسة لتأدية الصلاة.

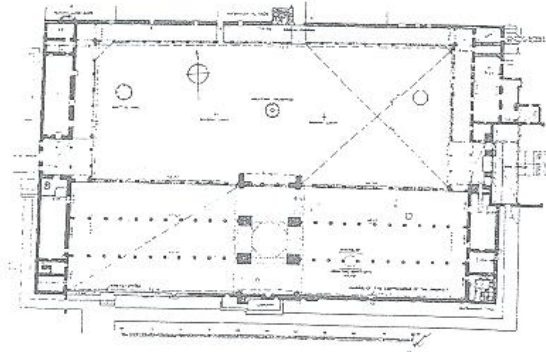
فلو كان الأمر صحيحا أن المسلمين أخذوا نصف الكنيسة الشرقي فهذا يعني أن هذا القسم هو الذي يحتوي على حنية الكنيسة وبالتالي تستحيل صلاة المسيحيين في هذا القسم.

لذلك فإن الخلاصة الإجمالية لما سبق من مناقشات تقود الباحث إلى أن المسجد كان بناء مستقلا والكنيسة (كنيسة يوحنا) كانت في خلافة الوليد بناء متداعيا منفصلا تمام الإنفصال عن المسجد، ولإن مواد البناء متوفرة والمساحة التي تتناسب مع مسجد عاصمة الأمويين متوفرة لذلك دمج البناء الكنسي في بناء المسجد لعدم صلاحيته لتأدية الشعائر الدينية المسيحية والتي توقفت منذ فترة طويلة ويؤيد ذلك أن المصادر المبكرة والمتأخرة على حد سواء لا تذكر إن مسيحيي دمشق كانوا يستخدمونها.

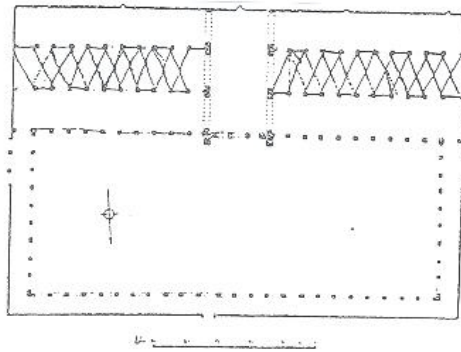
شكل (١)



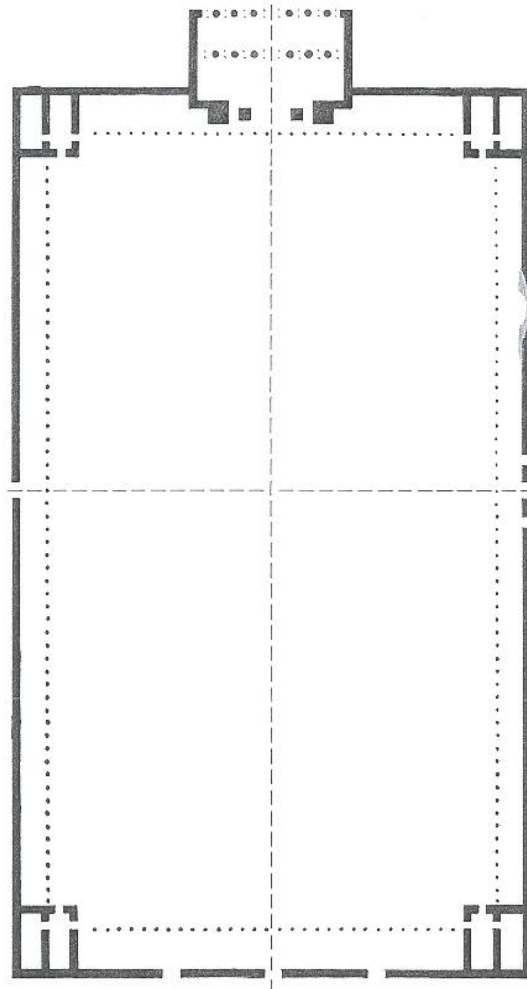
- المعبد



- المسجد

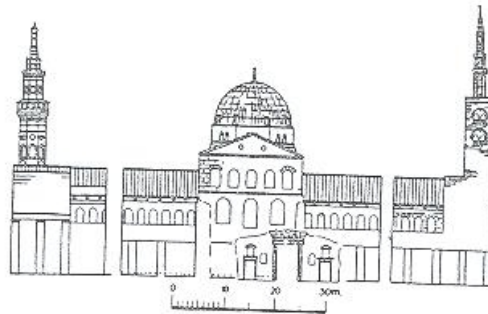
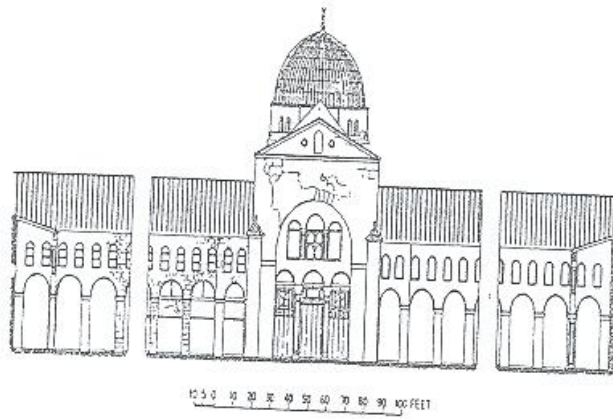
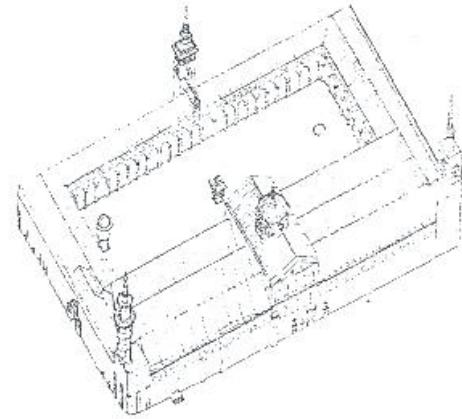


شكل (٣)



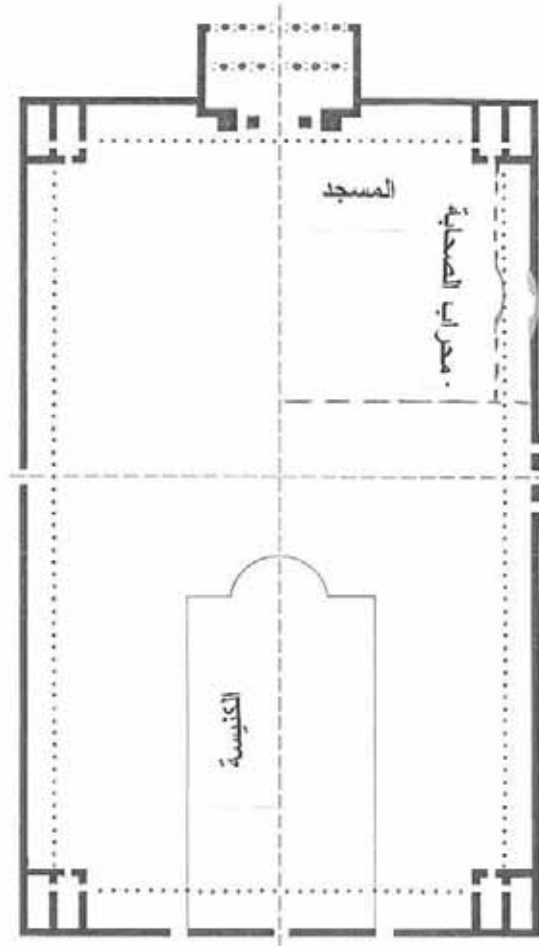
- إعادة رسم المخطط الأرضي
مخطط المعبد

شكل (٣)



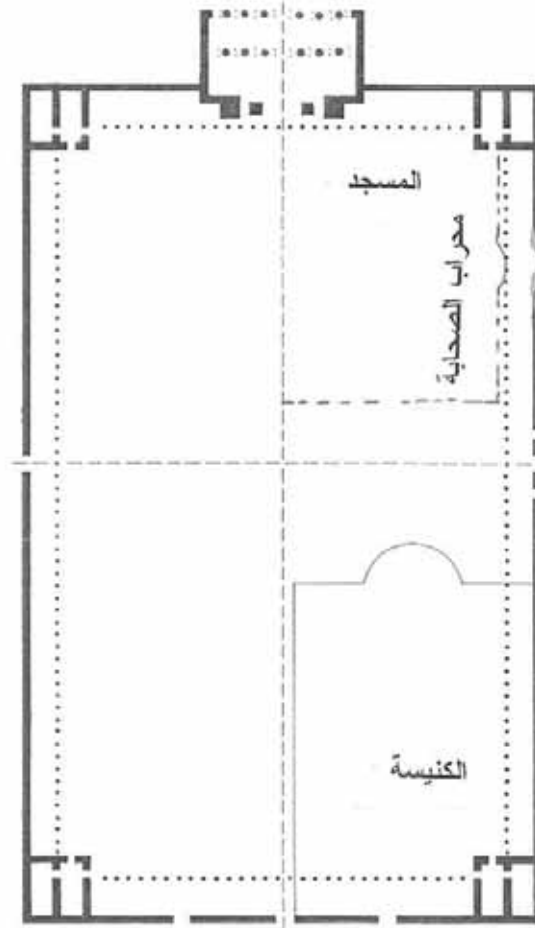
مساقط الواجهات في المسجد الأموي

شكل (٤)



إعادة رسم مخطط الكنيسة في حرم المعبد والمسجد

شكل (٥)



إعادة رسم مخطط الكنيسة في حرم المعبد والمسجد

الهوامش

- (1) الواقدي أبو عبد الله محمد بن عمر (ت 207هـ / 822م)، فتوح الشام، تحقيق: صالح موسى درادكة، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، اربد، الأردن، 2007م، ج1، ص 2، ج 2، ص 154-155.
- (2) المصدر نفسه، ص 151-152.
- (3) البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيى (ت 279هـ / 892م): فتوح البلدان، مراجعة رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1983، ص 128-129.
- (4) المصدر السابق، ص 132.
- (5) المصدر السابق، ص 132-133.
- (6) ابن خياط، خليفة العصفري (ت 240هـ / 951م): تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: سهيل زكار، دمشق، 1967م، ص 112.
- (7) الأزدي، محمد بن عبد الله (ت 231هـ / 854م)، فتوح الشام، تحقيق: عصام عقله و يوسف بني ياسين، مؤسسة حمادة، اربد 2005، ص 179، 182.
- (8) المصدر السابق، ص 240.
- (9) الطبري، محمد بن جرير (310هـ/920م)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: ابو الفضل ابراهيم، دار المعارف، مصر 1962، ج3، ص 440.
- (10) ابن عساکر، أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (571هـ/1175م)، التاريخ الكبير، دار الفكر، بيروت، 1997، ج1، ص 146.
- (11) ابن جبیر، أبي الحسن محمد بن أحمد (ت 614هـ/1217م)، اعتبار الناسك في ذكر الآثار و المناسك، تحقيق: محمد الحجيري، بيروت، 1979، ص 236.
- (12) العمري ابن فضل الله (ت 749هـ/1349م): مسالك الابصار في ممالك الامصار، تحقيق احمد زكي باشا، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1924، ج1: ص 178.
- (13) العمري، المصدر السابق، ج1: ص 179.
- (14) العمري، المصدر السابق، ج1: ص 181.
- (15) العمري، مسالك، ج1: ص 182.
- (16) النعيمي محي الدين عبد القادر (ت 927هـ/1527م): الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسني، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 1988، ج2: ص 371.
- (17) المصدر السابق، ج 2: ص 375.
- (18) المصدر السابق، ج2: ص 375.
- (19) المصدر السابق، ج 2: ص 377.
- (20) المصدر السابق، ج2: ص 380.
- (21) Arculfus B. : *The Pilgrimage, cf, Palestine Pilgrims, Text Society*, London, 1892, III, p47.
- (22) محمود عمران: "كتابات الرحالة اركولوف كمصدر لبلاد الشام في عصر الراشدين"، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، الندوة الثانية، مج 3، 1987، تحرير محمد عدنان البخيت، عمان، ص 311-330.
- (23) سعيد بن البطريق (ت 328هـ / 940م): التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت 1909، ص 42.

- (24) والشافعي، Creswell.k, *Early Muslim Architecture*, Oxford, 1932, vol. 11: pp. 100-146،
فريد: العمارة العربية – عصر الولاة، مج1، القاهرة، 1970م: ص 242-243.
- (25) كريزول، الآثار الإسلامية الأولى، ترجمة: عبد الهادي عبلة، ط1، دمشق، دار قتيبة، 1984، ص 75.
- (26) Grabar,O. : *The Formation of Islamic Art, NewHaven and London*, 1987. 104-105.
- (27) كريزول، الآثار، ص 72، 75.
- (28) السلطاني، خالد، *العمارة في العصر الأموي*، الانجاز والتأويل، دار المدى، دمشق، 2006، ط1، ص137.
- (29) كريزول، الآثار، ص 87.
- (30) كريزول: ص 96 .
- (31) ابن عساكر، التاريخ الكبير، ج1، ص 146.
- (32) Arculfus, op, cit, P.47.
- (33) الريحاوي، عبد القادر، *العمارة في الحضارة الإسلامية*، جدة، 1994، ص 54.
- (34) الريحاوي، عبد القادر، "إسهام في دراسة الجامع الأموي بدمشق"، *الحوليات الأثرية السورية*، مج13، 1963، ص 53-70.
- (35) عزيز عطية سوريال، *السريان في التاريخ*، دارماردين، حلب 2008.
- (36) نورمان بيز: *الإمبراطورية البيزنطية*، تعريب حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد، القاهرة 1957.
- المنبجي، أغاييوس بن قسطنطين (4هـ): *المنتخب من تاريخ المنبجي*، إنتخبه وحققه: عمر عبد السلام تدمري، دار المنصور، لبنان 1986 ص45 وابن القاسم، يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد (1100هـ/1688م): *غاية الأمان في أخبار القطر اليماني*، تحقيق: سعيد عاشور، الجزء الأول، القاهرة، 1968، ص87.
- والعظيمي، محمد بن علي (556هـ/1160م): *تاريخ حلب*، تحقيق: ابراهيم زعرور، دمشق، 1981، ص189.
- والغني، عبد الله يوسف: *سجل الزلازل وآثارها في المصادر العربية*، جامعة الكويت، الكويت 2002، ص67-70.
- (37) حسين مؤنس، *المساجد، سلسلة عالم المعرفة* ⁽³⁷⁾، الكويت، 1981.
- (38) كريزول : آثار، ص 317.
- (39) كريزول، الآثار، ص 72، 75.